سميـــــولوجيا الأنـــوثة*

بيير غيرو

ترجمة : محمد الرضواني

لا نعني بالوضع السميولوجي للمرأة وضعها الواقعي - البيولوجي الثقافي - بل المعني بذلك وضعها كما يتجلى من خلال العلامات، اللغوية منها بالأساس. وهو وضع معقد، لأن الأنوثة تودع صورتها - بشكل تناظري- داخل مجموعة من المفاهيم، وتستمد من هذه المفاهيم، في الوقت ذاته سمات عدة هي ما يشكل في نهاية المطاف صورتها.

ومع ذلك، إذا كان موضوع دراستنا هو المرأة باعتبارها علامة (دالة ومستدلا عليها)، فإن هذه الوظيفة تؤثر في الشرط الواقعي للمرأة، كما تؤثر في موقعها داخل المجتمع. وهذا الرابط بين الوضع السميولوجي للمرأة، وبين وضعها العملي رابط بالغ الأهمية في تصورنا، خاصة وأن هذا الوضع المزدوج لا يني ينمو ويتطور. وما نود تبيينه هنا هو لماذا وكيف تُبدي البنية السميولوجية مقاومة ماكرة لهذا التطور. فهذه البنية بقدر ما هي عنيدة ومستعصية على الضبط، بقدر ما هي لاشعورية.

كل شيء علامة. إن كل الموضوعات المشكلة لتجربتنا هي في الآن نفسه دوال ومدلولات تقع على مستويين من المعنى. ف" الشجرة " مثلا هي مفهوم يستدل عليه من خلال الكلمة / شجرة /التي تحيل على مضمون دلالي لهذه الفكرة، أي تحيل على ممارسة وعلى مجموعة من العلاقات العملية القائمة بيننا وبين الأشجار، ولكنها تعد في الآن نفسه علامة، أي دالا رمزيا لمجموعة أخرى من الموضوعات المتفاوتة المضامين، بل والغريبة عن بعضها البعض أحيانا أخرى : " شجرة المعرفة كما وردت في سفر التكوين، " الشجرة الرامزة للحياة"، شجرة الأصل" "شجرة المحرك" الخ .

هذا بالإضافة إلى أن هذا المعنى الثانوي (الرمزي) قد يصبح أكثر أهمية من المعنى الأصلي (العملي). وهذ ما يحدث على كل حال مع الصور النمطية الكبرى الخاصة بالفكر المخيالي حيث يتم تشويه " الفكرة" الأصلية وطمسها وإلغاؤها من خلال الانتصار للتصورات الاستعارية التي تستوعب هذه الفكرة وتغطي على وجودها.

إن صورة الزوج (un couple) الجنسي في هذا المجال بالغة الدلالة. فالزوج يتكون من كيانين مختلفين ومتكاملين يشكل اتحادهما وحدة تامة. ومقولة الاختلاف هنا أساسية، كما أن الزوج يختلف عن paire ويختلف عن الرباط (une couple) أيضا. فكل ما يدخل ضمن هذا التعريف أو يمكن النظر إليه من خلال حدود هذا التعريف يمكن أن يشكل زوجا. وهناك عدد هائل من الأزواج : ف" السكين والفرشاة " و " المنجل والمطرقة " و" الزر والعروة " ثنائيات تشكل كلها أزواجا بالقوة.

وهناك أسنن متعددة تدل على وضع الزوج هذا : اللغة التي تتحدث عن الذكر والأنثى في مجموع ما، والتصوير الصباغي أو الأدب اللذان يصوران الشمس والقمر من خلال سمات الرجل والمرأة، أو ما نعثر عليه في الرمزية أو تفسير الأحلام أو التحليل النفسي، فهذه الحقول ترى في المفتاح والقفل الخ استعارات جنسية. إن العلامة الدالة على هذا المفهوم تشكل استعارة - صريحة أو ضمنية - تقوم بإدراج هذا المضمون ضمن الزوج البيولوجي، وهو الذي يشكل الصورة الأساس، الصورة النمطية والإبدال الدال على فكرة" الزوج"، وهي فكرة تتخذ أشكالا متعددة مستوحاة من الميكانيكا والطبيعة والمفاهيم .

لقد أعطيت لأزواج ميكانيكية مثل " اللولب والحلزونة " (vis et ecrou) أبعاد جنسية أو إيحاءات جنسية. ويميز الأبطال الهامشيون في روايات بلزاك من خلال لغتهم السوقية بين الأوراق البنكية من فئة 1000 فرنك ويطلقون عليها " فاليو ذكر"، وبين الأوراق من فئة 500 فرنك ويطلقون عليها فاليو أنثى. وقد أضاف إلى ذلك أحد الظرفاء في نهاية القرن التاسع عشر فئة أخرى ذات الخمسين فرنكا وأطلق عليها "فاليو مراهقة". وهناك تجمعات حرفية تنظر إلى الأوعية باعتبارها " قطا" أو باعتبارها " قطة " وفق ما إذا كانت كبيرة أو صغيرة، كما هو الحال في التقابل بين " القدر" و" فصفصة صغيرة ". وكذلك الأمر مع الشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسماء والأرض، والنار والماء، والصخرة والمغارة، الخ فهذه الثنائيات تشكل أزواجا طبيعية مسكوكة في أغلب الأساطير حيث يتم انطلاقا منها توليد عدد لا يحصى من الحكايات.

ومن السهل جدا عقلنة هذه التمثلات : إن الرمزية الجنسية للصخرة والمغارة مثلا، أو تلك الخاصة بالمفتاح والقفل والشمس والنهار والنور رمزية مرتبطة بالقمر والظل. إن الشمس هي منبع الطاقة الكونية ومبدؤها، وهي بذلك أصل الحياة، في حين لا يقوم القمر إلا بعكس النور الشمسي.

وكذلك الأمر مع الشمس، ففي علاقتها بالأرض، ينظر إليها باعتبارها العنصر المخصب الذي يزرع بذور الأرض - الأنثى والأم- التي لا تقوم سوى بحمل ما تودعه الشمس داخلها. ومن جهة

ثانية، فإن الشمس - بعيدا عن أي إيحاء ديني أو أسطوري - ينظر إليها دائما باعتبارها عنصرا حيويا، فهي تدفئ وتحرق، وتدوخ، وتضرب الرؤوس الخ، في حين لا يشكل القمر أو الأرض سوى فرجة موضوعة بشكل " بارد" أمام ناظرينا. استنادا إلى هذه التمثيلات الأسطورية للعناصر المزدوجة والمترابطة فيما بينها، واستنادا إلى التقابل بين " أب" و" أم" ، تأسس نسق مفهومي نمثل له فيما يلي:

أب - أم	أب - أم
ذات - موضوع	كينونة - جوهر
منفعل - فاعل	شكل - جوهر
قوة - عجز	احتمال - لااحتمال
نظام - لانظام	عقل - قلب
طاقة – مادة	ذكاء - حساسية

وتتطابق مع هذه الثنائيات المقولات التالية

الشمس – القمر	فوق - تحت
النهار – الليل	الخير - الشر
ناتئ – مجوف	الله - الشيطان

ويمكن العثور على نسق التطابقات التناظرية هذا في العديد من الثقافات. مثال ذلك ما نعثر عليه في الثقافة الصينية حيث يتم مقابلة اليانغ (yang) باليين(yin) ، وهي مقابلة دائمة وتامة. ويقدم لنا ألان بيرفيت وصفا مختصرا لهذا التقابل :

" إن اليين هو المنحدر الظليل، في حين يشكل اليانغ المنحدر المشمس. إن اليين هو الرطوبة والبرودة والشتاء والانتظار الغامض والطاقات الكامنة، كما يشكل السلبية والانفعال والأنوثة. أما اليانغ فهو الجفاف والحرارة والصيف والرغبة المنتصبة والطاقات الهادرة والإيجابية والنشاط والفحولة.

إن تكامل الأضداد هذا يصدق على كل الميادين : الشمال والجنوب، الأسفل والأعلى، الأرض والسماء، اليسار واليمين، ويشمل هذا التقابل المطبخ الصيني ذاته، فاليين يذوب أما اليانغ فيقضم، اليين حلو أما اليانغ فمالح ".

إن تقابلا من هذا النوع- وهو تقابل مغرق في القدم والعمومية والدينامية - لا يمكنه إلا أن يحدد صورة " الأنوثة " وينمذجها، وتنتج عنه، تبعا لذلك، الفكرة القائلة إن المرأة لاعقلانية وحساسة أكثر مما هي ذكية، وهي منذورة للطاعة والخدمة لا للقيادة والقرار.

يشكل هذا النمط من المفهمة نظاما ونسقا من التحولات ينتهي إلى اكتساب استقلالية ليشتغل بعدد ذلك استنادا إلى آلياته الداخلية ويتحرر من الفكر في حالته الخالصة لينفصل بذلك عن التجربة

العملية. وهذا التكامل في ذاته يولد كيانين متكاملين يحتويان بالقوة على صورة جنسية. وداخل هذا الزوج يتم منح صفة الذكورة إلى العنصر الإيجابي.

ويشكل التقابل يمين/يسار مثالا رائعا لهذا الإجراء ولطابعه الاعتباطي. فهناك من الثقافات ما يمنح هذا التقابل بعدا أخلاقيا، وهناك ما يمنحه بعدا جنسيا وهو ما نعثر عليه في الموروث الغربي وعند البمبارا والصين واليابان. والحال أن ما هو إيجابي هنا (في أوروبا وإفريقيا) يعد سلبيا هناك (في الصين واليابان). وفي جميع الحالات، فإن المرأة توجد دائما في الجانب السلبي. ونقدم فيما يلي بعض العناصر الخاصة بالتقابل يمين/يسار، كما وردت في " قاموس الرموز: "

" يمتلك اليمين، في الموروث المسيحي الغربي، معنى إيجابيا، أما اليسار فينظر إليه نظرة سلبية. إن اليمين يمتلك قيمة خيرة، أما اليسار فيحيل على قيمة سيئة. و لم يفلت الموروث القروسطي المسيحي من هذا التقابل الذي يرى في اليسار الجانب الأنثوي، في تقابله مع اليمين الذي يحيل على الذكر. وبما أن اليسار مؤنث، فإنه ليلي، شيطاني حسب بعض الأحكام المسبقة في تقابله مع اليمين الذي هو يومي وإلهي".

ونعثر أيضا على ما يلي:

" يعد الرقم أربعة، وهو رقم يحيل على الأنوثة، في إفريقيا عند البامبارا، مرادفا لليسار، أما الرقم ثلاثة، الذي يحيل على الذكورة، فهو مرادف لليمين. إن اليد اليمنى ترمز إلى النظام واليقين وتعبر عن الاستقامة والعمل والوفاء، أما اليد اليسرى فهي رمز للفوضى والتقلبات الخاصة بالوعي الإنساني".

أما الصين فتقدم لنا وضعا مختلفا يندرج ضمن نسق مركب يوضح الفروقات الدقيقة بين اليانغ (الذكر) واليين (الأنثى) :

" إن اليسار هو الجانب النبيل، إنه يمثل السماء، فهو إذن " يانغ"، ويتفوق في حالات كثيرة على اليمين الذي هو الأرض و" يين ". فكل ما هو يسار فإنه يحيل على النبل. فالصينيون يخفون اليد اليمنى تحت اليسرى إذا أرادوا تحية أحد، أما النساء فيفعلن عكس ذلك. إلا أنه في حالات الحداد، والحداد " يين" ، فإن الرجال يقومون بعكس ذلك، فهم يخفون اليد اليسرى تحت اليد اليمنى. وقديما كانت الأذن اليسرى أو العين اليسرى هي التي تقطع للسجين. وبصفة عامة، فإن المنح في الصين يكون باليد اليسرى، أما الأخذ فيكون باليد اليمنى. وهو ما نعثر عليه في اليابان، فاليسار هو جانب الحكمة والإيمان والغريزة، إنه مرتبط بالسماء التي تعد عنصرا ذكرا، فالغلبة دائما لليسار".

ونقدم مثالا أخيرا، وهو مثال نوعي، قد يمكننا من الإمساك في الوقت ذاته بالطابع الاعتباطي لهذا النسق وبأصله السميولوجي المحض وبوظيفته التصنيفية، كما يمكننا من الإمساك بتأثيره الفعلي على الواقع وخاصة ما يتعلق بسلوك النساء والرجال:

"يربط بورورو إفريقيا، وهم شعوب رحل من منطقة الساحل النيجيري، شأنهم في ذلك شأن الكاغارو، الجانب الأيمن بالرجل، وبـــ "الأمام" في التتابع الزمني، ويربطون الجانب الأيسر بالمرأة و" المابعد". وبموازاة ذلك، فإن

التراتبية الذكورية تسير من الجنوب إلى الشمال، أما التراتبية النسائية فتسير من الشمال إلى الجنوب. ونتيجة لهذا، فإن المرأة تضع أوانيها، عند التعسكر، حسب تراتبية قائمة على الحجم. فهي تضع أكبر الأواني جنوبا، فيما يربط الرجل ثيرانه حسب النظام العكسي". (2)

وبالمثل فإن تشبيه القمر بالمرأة يجد مصدره في كوسموغونية شمسية. إلا أن الصورة الأكثر تعقيدا من ذلك، هي تلك التي تدرج هذا التشابه ضمن رمزية للتغيير بحكم حالات القمر الذي يمنح الزمن وتيرة معينة، ويحدد الخرافات والطقوس والممارسات، وخاصة تلك المرتبطة بالفلاحة.

ولم يفت البعض أن يعثر على تناظر بين الشهر القمري والعادة الشهرية (لا تشكل كلمة mensuelشهري و menstruel حيضي سوى كلمة واحدة)، فالحيض يشار إليه في الفرنسية الشعبية من خلال كلمة شهرmenstrual . أما في اللغة السوقية فإن الشهر الكرونولوجي يكون" موسوما" بالإحالة على الشهر الحيضي الذي يشير إلى ثياب النساء.

وبطبيعة الحال، فإن المرأة " القمرية " هي امرأة متغيرة، إنها قمرية، كما أن مزاجها وحيضها يتحكم فيهما القمر : يكون " الاجتماع الليلي " للساحرات ناجحا إذا تم في ضوء القمر، أما شجرة السيمبل -(simple) التي تتأثر في نموها بالقمر- فيجب أن تقوم بقطفها عذراء غير حائضة في ضوء القمر (قد تتغير الإجراءات لكن المبدأ سيظل ثابتا).

ومن المعروف أن الطباخات يهيئن المايونيز وهن على حيض. وبعبارة أخرى، لقد انتقلنا، عبر ما يشبه الدلالة الانعكاسية، من المرأة علامة " قمرية" إلى القمر علامة " مؤنثة ". وقد نتج أثناء هذه السيرورة تقلص تحول إلى علامة على سلطة حقيقية من خلال إقامة علاقة سببية بين الشهر الزمني وبين شهر العادة الشهرية مستخلصا منها ممارسة قائمة الذات. والحال أن هذه العلاقة، ويجب الإلحاح على ذلك، لا أساس لها من الصحة في الواقع.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول إن واقعا مجهولا ومؤولا بشكل سيئ، يدل على ممارسة وهمية ويولد ممارسة واقعية، شأنه في ذلك شأن ممثل لا يحتفظ في حياته كلها سوى بصورة دور قام به ذات مرة. ومن جهة ثانية، فإن العلامات تولد، اعتمادا على آلياتها الداخلية، تقابلات اختلافية، اعتباطية إلى حد ما وعادة ما تكون مزيفة، ولكنها ناتجة عن دينامية عفوية للنسق. فالفكرة القائلة إن المرأة هي عكس الرجل (تماما كما أن الروح هي خلاف الجسد) قائمة على ملاحظات موضوعية وبديهية. هذا دون أن نتحدث عن الاختلافات الداخلية (من طبيعة كروموزومية وهرمونية) التي تعد هي الأخرى اختلافات حقيقية:

- القضيب الفرج
- مشعر أمرد
- صوت خشن صوت رقيق
- صدر أملس أثداء بارزة

ومقابل هذه السمات هناك سمات ثقافية تؤكد الاختلاف من طبيعة ثنائية رغم اختلافهما من ثقافة إلى أخرى:

- شعر قصير شعر طويل
- غياب الحلي وجود حلي/ عطر
- الصوف الحرير
- السروال التنورة

إن أصالة " الثورة" الحالية : رجل بشعر طويل، ونساء بالسراويل، ملابس للجنسين الخ تكمن في أنها تعد رفضا لهذا التقابل الذي يكاد يكون كونيا، وهو تقابل يُنظر إليه عادة نظرة إيجابية. فبقدر ما يكون الاختلاف كبيرا بقدر ما يحس الفرد أنه أكثر فحولة أو أكثر أنوثة، رجلا تاما أوامرأة تامة.

وهناك طابع آخر داخل النسق يدفع بالقضية إلى حدودها القصوى : فبما أن الاختلاف هو جوهر الجنس، فإننا نبحث عنه ونضعه في كل شيء. إن الرجل والمرأة، وهما يشكلان صورتين متوازيتين ومتناقضتين، يتقابلان في كل السمات. وإليكم ما ورد في كتاب لافاتار " lavater علم الفراسة" حول العلاقات بين الجنسين:

- إن الرجل صلب - المرأة هشة
- إن الرجل مستقيم - المرأة منحنية
-يمشي الرجل بثبات - المرأة تقفز شيئا ما
-الرجل يراقب ويلاحظ - المرأة تختلس النظرة وتتلمس
-الرجل جدي - المرأة مرحة
-الرجل هو الأقوى والأوسع - المرأة أقل قوة منه
-الرجل خشن وصلب - المرأة مؤدبة وطيبة
-الرجل قاتم - المرأة واضحة
- الرجل مجعد - المرأة ليس لها نفس تجاعيد الرجل

إن هذا الجرد دال من حيث ثنائية التقديم ومن حيث طابعه النسقي والاعتباطي. وهو جرد قابل للتفنيد بسهولة من خلال الملاحظة التجريبية. إلا أن هذه الثنائية تصبح خادعة عندما تنقل إلى المجال البسيكولوجي، وذاك وضعها في واقع الأمر. فماذا يمكن أن نرد على لافاتير الذي يقول " بأن المرأة ليست عميقة التفكير، فالتفكير سلطة للرجل، المرأة أكثر حساسية. إن الحساسية هي سلطة المرأة "؟ ومع ذلك فإن هذا هوالرأي الشائع، وهو ما قالت به جورج صاند : " بما أن المرأة لا تمتلك عمقا في الرؤية، وليس لها تفكير سليم، فإنها لن تكون عبقرية ".

والجدير بالملاحظة أن عقولا علمية ومؤلفين حداثيين يعدون من المناصرين لحركة تحرير المرأة، تبنوا هذه الخطاطات، وهم يؤكدون أصلها السميولوجي، أي الوهمي. وهذا ما نعثر عليه في كتاب بيير داكو " (P Daco) من أجل فهم النساء ونفسيتهن العميقة "، والأمر يتعلق بكتاب وضعت مقدمته الدكتورة إيلين توبول (H Teboul) سكرتيرة الجمعية الفرنسية للسيكولوجيا التحليلية، والمؤلف هو < عالم بسيكولوجيا الأعماق ومحلل تطبيقي، تربى في أحضان التقليد الفرويدي، واستكمل تكوينه في مدارس كارل يونغ وشارل بودوان، وهو عضو في المعهد العالمي للبسيكوتيرابي والمؤسسة العالمية كارل يونغ، والبسيكولوجيا التحليلية (نيويورك)، والجمعية الفرنسية للبسيكولوجيا التحليلية (باريس).

لقد فطن بيير داكو إلى أن تصورنا للأنوثة هو من طبيعة رمزية، وشرح ذلك قائلا:

" إن رموز المرأة لم تولد من كينونتها فحسب، بل من ظاهرها أيضا (ص 131). ومن الضروري أن نفهم أن الأنوثة والذكورة حدان لا علاقة لهما بكون الفرد امرأة أو رجلا، وكما سأبين ذلك، فإن الأمر يتعلق بموقفين خاصين بطاقتنا. إلا أن طاقتنا اتخذت أبعادا جنسية "(ص 172)

" إذا كان بإمكان الإنسان مواجهة قلقه، فإن عبادة المرأة (سلبا أو إيجابا) ستختفي، وذلك لأن المرأة لا يد لها في هذه العبادة. إن خطأها الوحيد أنها صورة جاهزة في متناول اليد " (ص 149)

ومن خلال هذه البرهنة- وهي برهنة نتفق مع جل ما جاء فيها، فما يهمنا هو الشكل - يقدم هذين الموقفين من خلال ثنائية عنيفة ومبتصرة:

" إن ذكاء الأنوثة يمتد أفقيا، ويمتد ذكاء الرجل عموديا، ألا يجب أن نرى في هذا تكاملا جميلا، على كل فرد أن يمتلكه في ذاته ". (ص 306)

وبعد هذا يقدم لنا مجموعة - مجموعة كبيرة جدا- من اللوحات، حيث يأخذ التقابل شكل ثنائيات منهجية. وهكذا نعثر على:

الرجل	المرأة
- لا يعمل للحاضر	- تعمل من أجل الحاضر

- يسقط أفكاره على المستقبل	- لا تفكر في المستقبل إلا عندما يكون الحاضر منظما
- يريد أن يفلت من الحاضر	- تعيش الحاضر بقوة (ص 321)
القطب الذكوري	**القطب الأنثوي**
- سادية	- مازوخية
- نشاط يستخدم الطاقة المتراكمة	- انتظار وتخزين للطاقة
- نشاط متذبذب وفوضوي	- سلبية، فاقدة شيئا فشيئا للطاقة وميالة إلى الجمود
- اندفاع	- جمود
- يفعل أكثر مما يلزم	- إهمال
- يهاجم	- مهاجَمة
- الحاجة إلى الهجوم	- الحاجة إلى الخضوع
-الدخول العنيف (من خلال أفعال أو كلمات تغتصب شخصية الآخر)	- قبول الدخول (في الحياة، كلمات جارحة، الآخر أفعال
- التفوق على الآخرين	- أقل شأنا من الآخرين
- يهين	- تقبل الإهانة
- البحث عن إهانة الآخرين	- البحث عن الإهانة الذاتية
- الحاجة إلى إذاءة الاخرين	- البحث عن الألم
- البحث عن اللذة من خلال إيلام الآخرين	- البحث عن اللذة من خلال الألم الذاتي
- الرغبة في إفشال الآخرين (قتل الآخرين معنويا أو فيزيقيا)	- البحث عن القتل المطلق، عن الموت الداخلي أو الفيزيقي

ويقدم لنا المؤلف نفسه لوحة خاصة بوظيفة التبول من خلال استعادة التحليل الفرودي ل " الرغبة في القضيب"، ويرى في " التبول" (عن حق) رمزا للقوة:

الطفل	**الفتاة**
- واقف	- مقرفصة
- جهارا	- متسترة
- يلقي ببوله في الهواء	- تنظر إليه ينساب من تحتها
- فعل سريع	- فعل بطيء
- اعتباره أمرا طبيعيا	- اعتباره أمرا مهينا ووسخا
- نشاط إرادي	- سلبية وخضوع للمادة

- خارج الجسد	- داخل الجسد
- التمييز بين الثقب البولي	- التداخل بين الثقب البولي والشرج
- شرجي	- شرجي
- قضيب يتباهى به الآباء	- فرج متجاهل أو محتقر من طرف الأطفال
- التماهي الممجد في القضيب	- عدم التماهي الإيجابي مع الفرج
- الإحساس بالقوة والنبل	- الإحساس بالعجز والعار
- منتصب بشكل واضح ومنتصر	- مقرفص بشكل مستتر ومنهزم
- رفعة	- دونية

ونكرر هنا أننا لا نروم انتقاد مضمون هذه التحاليل، فنحن نؤكد صحة أغلبها، هذا ناهيك عن أن المؤلف يؤكد أن أصلها رمزي، ويؤكد أن الأنوثة والذكورة عادة ما ينظر إليهما باعتبارهما صفات تعود إلى التركيبة النفسية مذكرا كان أو مؤنثا. فما نود القيام به هو إبراز نمط مثالي من الفكر التناظري الذي لا يستطيع تصور الأنوثة إلا من خلال تقابل ثنائي منهجي، تبلور في جزئياته ونتائجه السميولوجية في تقابله مع الذكورة. ومن هنا تتسلل الصور التي تؤدي بشكل عفوي، داخل كتاب " علمي" ومنذور لتحرير المرأة، إلى العودة من جديد إلى الأساطير الأكثر إيغالا في القدم والأشد استلابا للأنوثة.

" لنذكر أولا أن الأنوثة شبيهة بالماء : إنها غير مميزة، فهي بلا شكل ولكنها قابلة أن تتجسد في كل الأشكال. إن الماء باعتبار سلبيته، يحيط بالمرء ويحاصره في صمت، إنه ينساب بشكل ماكر ". (ص 334)

إضافة إلى هذا يقدم لنا داكو سلسلة من التصنيفات الخاصة بأنماط نسائية متنوعة:

- " المرأة المتحررة تشبه أرضا خصبة، في أحشائها خيرات جيدة ".
- "إن المرأة الموات شبيهة بأرض جيدة ولكنها موات ".
- "إن المرأة المنغمسة في قوة الأمومة تشبه أرضا مليئة بالماء تسكنها النيفورات الليلية ".
- إن المرأة العدوانية شبيهة بأرض مجففة ليس فيها سوى العليق ".

بعد كل هذا يحق لنا أن نتساءل عما إذا لم تكن هذه الصور " الأرضية " و" المائية " الخاصة بنفسية المرأة تصب الماء، بشكل لاإرادي، في طاحونة المناوئين التقليديين لها.

ولقد غذى هذا الفلكلور الذي يجد أصوله في المقالب والمنظومات والحكايات القروسطية، عداء رابلي وتابعيه كبارا وصغارا للمرأة، ولا زال يغذي الحكايات الغالية وأغاني الجنود حتى أصبح أمرا مألوفا في حياتنا. وبالمقابل من الغريب أن نلاحظ أن الكثير من العلماء والعقلاء قد بلعوا هذه

الأحكام. فمادة امرأة في لاروس القرن التاسع عشر تحشد مجموعة من الحكايات الصغيرة توضح ما قلناه سابقا. مثال ذلك:

- "لقد تعجب الناس من شخص زوج ابنته لألد أعدائه، فرد عليهم، فعلت ذلك لأنني أريد أن أنتقم منه."

- " المرأة سيئة المزاج

ولن نجد في حضنها

سوى لحظتين من السعادة

ليلة الزفاف ويوم دفنها ".

"سئل ميلتون لماذا يتوج الملك في بعض البلدان في سن الرابعة عشرة ولا يسمح له بالزواج إلا في سن الثامنة عشرة، فأجاب لأنه من السهل حكم مملكة ومن الصعب حكم امرأة ".

كل النساء متشابهات إذن، فهذا "الحيوان الغريب" يثير لدينا فكرة الثرثرة والغباء والحيلة والخيانة والبله الخ .

أما ما يتعلق بالجسد فهو أقل غرابة. وهكذا نعثر في الفقرة الخاصة بالاختلافات النفسية بين الرجل والمرأة على ما يلي:

" إن بناءها الجسدي يشبه بناء جسد الطفل، ولهذا فهي مثله شديدة الحساسية. فمن السهل التأثير عليها عبر مشاعر متنوعة كالفرح والألم والخوف الخ. وبما أن هذه التأثيرات تصل إلى المخيلة دون أن تكون مرفقة ببرهنة عقلية، فإنها سريعة الزوال، ولهذا فإن المرأة سريعة التقلب".

أما فيما يتعلق بالأنواع النسائية، فإن المرأة توصف أحيانا باعتبارها بقرة وأحيانا أخرى باعتبارها مهرة :

" إن الأنجليزيات شقراوات... الألمانيات ... النمساويات، الدانماركيات والسويديات لهن عيون زرقاء وسحنة شقراء باهتة، إلا أن خصوبتهن ليس لها مثيل، وخاصة في المناطق المجاورة لبحر البلطيق ".

وفي الختام، ودائما حسب نفس المصدر، نعثر على ثمن الزنجيات في إفريقيا:

" إن ثمن الزنجيات في نيغوس وتومبوكتو وكاسينان، يختلف حسب نقص هذه المادة أو وفرتها. وإليكم بعض المؤشرات الخاصة بالبيع في سنة 1865 بالكوريس (العملة المحلية) وبما يقابلها بالفرنك، وهي قيمة تقريبية :

زنجية	بالكوريس	بالفرنك
من 6 إلى 12 سنة	25000 تقريبا	45
من 12 إلى 16	30000	50
من 16 إلى 25	20000	40
ما فوق 25	من 3000 إلى 10000	6 إلى 20

ومع ذلك لا يجب النظر إلى هذا التحويل من الكورتيس إلى الفرنك في حرفيته.. "

تلك هي عصارة المعرفة الخاصة بوضعية المرأة. إنها نوعية المعلومات التي تعتبر دالة وجديرة بأن تقدم إلى القارئ.

ولقد أكدت كل الديانات الإنسانية دونية المرأة، وخاصة دونيتها الأخلاقية. وتأتي ديانتنا على رأسها فقد حرمتها حتى من حق امتلاك روح، و لم تتوقف على مدى قرون عديدة من جعلها أصلا للخطيئة. إلا أننا نعثر على نفس الثيمة في كتب مقدسة أخرى في الهند، أو القرآن الذي جعل من الرجل مساويا لامرأتين والمرأة مساوية لعبدين. أما التلمود، فقد منع النساء من دراسة القانون. وكذلك الأمر عند الصينيين الذين أبدوا استغرابهم من جهود المبشرين في الدفع بالمرأة إلى اعتناق المسيحية، فالمرأة عندهم ليست لها روح خالدة .

ولقد قام أحد المفكرين المشهورين والعقلاء، ويعد أبا للاشتراكية، بعملية حسابية قادته إلى القول بأن رجلا يساوي ثلاث نساء وبعض الشيء. فقد لاحظ برودون في "دفاعه "عن المرأة ، أن تحريرها سيكون وبالا عليها وسيجعلها تحت رحمة الرجال.

" ليس بإمكان المرأة ادعاء القدرة على الإفلات من سلطة الفحولة، إن خضوعها أمر لا مفر منه، فنظرا لطبيعتها، ولموقف القانون منها فإنها لا تزن سوى ثلث الرجل. وإجمالا فإن الدعوة إلى تحريرها لن تكون سوى تكريس شرعي لبؤسها، إن لم نقل لعبوديتها. إن أملها الوحيد هو إيجاد صيغة لتحررها، وهذه الصيغة هي الزواج " . (Larousse xix s , femme)

وإليكم البرهنة والحساب المثالي لهذا الفيلسوف الكبير. إن المرأة من خلال حجمها وقوتها العضلية تساوي، من الناحية الفزيولوجية ثلثي رجل. وبما أن الروح تابعة للجسد، فهي على هذا الأساس تمتلك ثلثي الطاقة الذكائية للرجل. وبما أن الحس الأخلاقي مرتبط بالحكم على الأشياء، فإنها هنا أيضا لا تساوي سوى ثلثي الرجل. والخلاصة > بما أن المجتمع يبنى على أساس وجود عناصر ثلاثة: العمل والعلم والعدالة، فإن القيمة الإجمالية للرجل والمرأة وكذا روابطهما وتأثير حصة كل منهما ستكون على الشكل التالي : 3 * 3 * 3 مقابل 2 * 2 * 2 ، أي 27 مقابل 8".

وسيكون من المفيد التوقف قليلا عند فكر برودون (الذي يقدم له هنا لاروس مختصرا). فهذا الفكر، رغم كل شيء، ليس قديما، فهو إلى حد الآن يعد مصدرا للأنساق السياسية/الاقتصادية التي لم تفقد بعد راهنيتها (ونقدم فيما يلي النص كما ورد في لاروس القرن التاسع عشر).

" إن القوة الفيزيقية، بسبب التأثير المتبادل بين الجسم والروح، ليست ضرورية للعمل الذهني كما هي بالنسبة للعمل العضلي. وتبعا لذلك، فإن الفكر، إلا في حالات المرض، يقاس بالقوة. إن

للمرأة، مثلها مثل الرجل، خمس حواس، وهي منظمة بنفس طريقة تنظيم الرجل. إنها ترى وتحس وتتغذى وتمشي، إنها تتحرك كالرجل، فلا ينقصها، من الناحية الفيزيقية، لكي تكون مساوية للرجل سوى شيء واحد هو البذور.

وبالمثل، فإن للمرأة من زاوية الذكاء، إدراكات وذاكرة ومخيلة، فهي قادرة على الانتباه والتأمل والحكم. فماذا ينقصها ؟ إن ما ينقصها هو إنتاج البذور، أي أفكارا يسميها اللاتينيونgenius ، العبقرية، أي الملكة المولدة للذهن.

إن المرأة غير قادرة، اعتمادا على طاقتها الذاتية، على إنتاج كونيات ولا مقولات. إنها قادرة، إلى حد ما، على استقبال الفكرة وتتبعها، إنها تكتفي بتلقيها في واقع الأمر. إنها لا تعمم أبدا، ولا تقوم بالتركيب. إن ذهنها مضاد للميتافيزيقا، ولقد ساهمت المرأة من جهتها بقدر كبير في ابتكار ألفاظ اللسان، وأنا أعتقد ذلك، ولكنها ليست هي التي ابتكرت الألفاظ الخاصة بالأفكار المجردة من قبيل الجوهر، السبب، الفضاء، الكم، الرابط الخ. ونتيجة لذلك، لم تكن هي التي ابتكرت الأشكال النحوية والجزئيات، و لم تكن هي أيضا التي اخترعت علم الحساب والجبر.

إن البشرية ليست مدينة للمرأة بأية فكرة أخلاقية، لقد تقدمت في العلم دون مساهمة النساء و لم تكن النساء سوى . oracle إن البشرية ليست مدينة للمرأة بأي اختراع صناعي ولا ميكانيكي. إن الرجل يخترع ويطور، يعمل وينتج ويطعم المرأة، إنها تنتظره، من خلال خبرتها الإيمانية، الأشغال المترلية البسيطة إنها لم تخترع حتى المغزل. إن دورها في عالم الأدب، هو نفس دورها في المانيفوكتورا، إنها تُستخدم حيث لا حاجة للعبقرية، مثلها في ذلك مثل المكب والسفود".

إن هذا النص رائع من حيث إنه يعيد إلى الأذهان فكرا موغلا في القدم : إن الفكر عند أي كائن حي يقاس بقوة العضلات، المرأة عاجزة عن إنتاج البذور، فالأفكار تشبه بالبذور.

ولقد كان فوريي Fourier أكثر نسوانية. فقد لاحظ، وهو الذي كان يدعو إلى تحرير المرأة، وجود اختلافات فيزيقية بين الجنسين، ولكنه كان يريدهما متكاملين، أي متساويين، إلا أنه داخل هذه المساواة لاحظ وجود نمط قوي ينتمي إليه الرجل ونمط ضعيف تنتمي إليه المرأة. وتلك هي الحجج السجالية التي استند إليها، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الداعون إلى تحرير المرأة والمناهضون له. ولقد تطورنا كثيرا منذ ذلك التاريخ ولكن هل هناك من يزعم أننا تجاوزنا هذه الأحكام المسبقة ؟

وضمن هذا المنظور أيضا يجب وضع أعمال وأفكار فرويد. فأفكاره رجعية بشكل غريب، فهو يعتبر عن حق من أكبر أعداء حركة تحرير المرأة. وتعد نظريته " الرغبة في القضيب" بشكل خاص،

الموقف الأكثر عداءً للمرأة. ف"الرغبة في القضيب" تعد، عند فرويد، أمرا فطريا، إنها ليست رمزا، بل واقع ملموس يتحكم في النفسية وسلوكاتها. إن المرأة، نفسيا وجسديا، رجل مجهض، رجل ينقصه قضيب، وهو عند فرويد، أصل ومصدر النفسية الفحولية، ولنا عودة إلى هذه القضية.

ومن الواضح، بل من المعقول أيضا أن تحلم المرأة بأن تكون رجلا في مجتمع يحكمه الرجال ويمتلكون السلطة والقيم. فما سيكون رد فعل طفلة ولدت في أسرة كانت تنتظر طفلا ؟ حيث ترى أمها مستعبدة ومهانة. فهل هناك أمر طبيعي أكثر من هذه الرغبة، الواعية أو غير الواعية، المركزة على اشتهاء قضيب الأخ الأصغر؟

أما أن نجعل من غياب القضيب رمزا لاستلاب المرأة، فهذا معناه أن نضع حدا بيولوجيا لما يعتبره الكثيرون، وعن حق، قدرا اجتماعيا قابلا للتقويض، كيفما كانت الصعوبات التي تثيرها العودة إلى الوضع الأصلي. ولهذا، فإن فرويد، المعروف بميزوجيته وميولاته الأبوية، يضع المرأة بشكل نهائي داخل وضع استلابي.

فهل يعني هذا أن وضع المرأة وضع اجتماعي وثقافي في كليته كما يقول بذلك بعض النسوانيين؟ سيكون الأمر مخاطرة كبيرة أن نتغاضى عن الاختلافات البيولوجية والسيكولوجية البديهية. فرغم أن الانتروبولوجيين يعتبرون أن الإنسان كائن اجتماعي، اندثرت غرائزه الطبيعية أو كادت، إلا أنهم لا ينفون أن الطبيعة هي التي حددت في بداية الأمر، دورالجنسين في التنظيم الاجتماعي. ولنتصور امرأة - ولماذا نتصورها فهي تعيش بيننا- داخل محيط طبيعي أنجبت ما بين سن الخامسة عشرة والخامسة والأربيعين (عندما تصل إلى هذه السن) 12ولدا، يأخذ كل واحد منهم سنتين أو ثلاثا من عمرها وطاقاتها، ما يعادل حياتها وطاقتها كلها، فهل هناك أمر أكثر طبيعية من أن يكرس الرجل كامل وقته للغزو والدفاع عن الوطن والمطاردة والغذاء! هذه هي الشروط التي حكم فيها على الرجل والمرأة أن يعيشا إلى أن لاحت بشائرالتطور العلمي التي خلصت إلى حد كبير الإنسان من ثقل العمل العضلي الذي حكم عليه الله به وحكم على المرأة بالإنجاب في شروط بدائية.

إن المرأة العصرية، بطفلين أو ثلاثة أطفال بمعدل حياتي ما 70 و75 سنة، لا تخصص لتربية الأطفال سوى العشر من عمرها. وبالإضافة إلى ذلك، إذا لم تكن المهن التقليدية قد مكنتها من منافسة الرجل في الميدان العضلي، فإنها اليوم قادرة على قيادة الجرار، وأن تعمل في معمل، أو تفجر الأرض بالضغط على زر.

لقد تغيرت علاقة الإنسان بمحيطه تغييرا كليا، ومعها تغيرت علاقة الرجل بالمرأة. وقد تغيرت أيضا - كما يقال - تلك الفكرة المزيفة الخاصة بدور الجنسين في التوالد. فمن الواضح أنه إذا كانت المرأة والرجل مختلفين بيولوجيا، فإنهما اجتماعيا متساويان أو يجب أن يكونا كذلك. ومع ذلك، فإن الاختلافات بينهما مازالت قائمة. إنها اختلافات متجذرة في ثقافة ليست ثقافتنا، ولكنها مازالت تغذي من خلال اللغة والأسنن السميولوجية الأخرى فكرا قديما محافظا ومقاوما، تعد المرأة داخله حرة أمام القانون ولكنها عبدة في الواقع.

إن المرأة والرجل كلاهما عبدان لـــ" أنوثة " تعد - في السراء والضراء، شيطانا أو ملاكا - نتاجا لثقافة. إننا لا نولد بروح، وإن كانت هذه الروح موجودة فهي مجرد غرائز آيلة شيئا فشيئا إلى الضمور. إن نفسيتنا هي وعينا لعلاقتنا بالعالم وعلاقتنا بأنفسنا. إنه وعي يأتي من التعلم ومن اللغة.

صحيح أن للاختلافات التاريخية بين نفسية مذكرة وأخرى مؤنثة جذورا طبيعية، فالتفوق الذكوري للرجل على المرأة من جهة، وغريزة الدفاع عن الأرض والغريزة المادية من جهة ثانية يعدان جزءا من تراث بيولوجي للنوع البشري، وقد برر هذا الإرث لفترة طويلة التخصص الوظيفي والنفسي للجنسين، وشيد - استنادا إلى الفكر واللغة - صورة للذكورة في علاقتها بالأنوثة.

ومن المحتمل أن تستمر هذه الاختلافات البيولوجية في التأثير على نفسية الجنسين خاصة الغريزة الأمومية. إن الإيروسية المؤنثة تبدو مختلفة عن إيروسية الرجل وذلك على المستويين الفيزيولوجي والعلاقات العاطفية. وكل من رأى بعض الحيوانات الداجنة في حميميتها سيدرك أن العلاقة العاطفية بين الذكر والأنثى مختلفة - إن لم يكن ذلك في العمق فهو كذلك على مستوى المظاهر. وإذا كان الأمر كذلك، فسيكون من السذاجة إنكار الواقع بل سيكون ذلك خطيرا؛ فالفصيلة التي تجهل إرثها البيولوجي، كيفما كان حجمه، سيكون مآلها الدمار والمآسي.

وعلى الرغم من ذلك، فإن الصورة الحالية للأنوثة والذكورة لم تعد تساير الواقع الجديد، والسبب في ذلك هو تغير طبيعة علاقة الإنسان بالطبيعة، أي تغير شروط حياته، وتعود من جهة ثانية إلى كون هذه الصورة تبلورت انطلاقا من تصور خاطئ لوظيفة الجنسين في التناسل. فلم يعد الاستلاب المادي للمرأة متجاوزا فحسب، بل إن استلابها الأخلاقي والروحي، ما يبرر الاستلاب الأول، يبدو الآن باعتباره عقلنة عبثية وخطيرة في حدود أنه لم يعد ملائما للمقتضيات العملية.

إن أطروحتنا قائمة على أساس أن هذه العقلية هي ظاهرة سميولوجية مرتبطة ارتباطا وثيقا بنسق فكري ولغوي تعد سنده والحامل له. إنها قائمة أيضا على أن الاستلاب الأساسي للمرأة هو استلاب

لغوي، وأن أهم السلط التي يحرمها منها المجتمع، وهي التي تتحكم في جميع السلط الأخرى، هي سلطة اللغة. وقبل مناقشة هذه القضايا، علينا أن نذكر بالثيمات الرئيسة للاستلاب الأنثوي : المرأة /موضوع، المرأة اللاعقلانية، المرأة الخطرة، وبصفة عامة المرأة السلبية.

إن فكرة المرأة /موضوع متجذرة بعمق في النسق المفهومي الذي نقوم بوصفه في هذه المحاولة ويعد مفتاحا له. فالمرأة هي الشكل الأمثل لـــ" الشيء"، إنها إبدال لكل الأشياء الأخرى وهي، نتيجة لذلك، عرضة لكل السمات الخاصة بالشيء السلبي : منفعل، ساكن، لاذات، وإلى حد ما لاكائن. وهذا ما يفسر أن الثقافة قد حرمتها، لمدة طويلة، من أية قوة ومن أية سلطة ومن أي تحكم. وقد يصل الأمر إلى حرمانها من أي وجود شرعي. مثال ذلك القاصر في المجتمع الأبوسي، القابعة في المنزل (إن لم تكن حريما) تحت سلطة الأب في المرحلة الأولى، وتحت سلطة الزوج الذي يشتريها في مرحلة ثانية.

وبالتأكيد، فإن الأمور تغيرت بسرعة، حتى وإن كان ذلك حدث متأخرا. فالمساواة القانونية بين المرأة والرجل أصبحت أمرا واقعا في مجتمعاتنا الديموقراطية، ومع ذلك، سيكون من باب تحصيل الحاصل التذكير بأن الواقع لا يسير بنفس وتيرة القانون. فمازالت المرأة خادمة في مجتمع يحكمه بالأساس رجال، وهذا على جميع المستويات : السياسية والإدارية والاقتصادية. إن الأمر جلي ولا يحتاج إلى أية إحصاءات، حتى وإن كانت هذه الإحصاءات متوفرة بكثرة.

ولا يقل وضوحا عن ذلك الأحكام المسبقة والمواقف تجاه عجز المرأة على السياقة والتحكم : إن النساء لا تجدن السياقة، لا تعر سيارتك لامرأة الخ، فالسيارة رمز للقوة والفحولة. وإذا كانت هذه الأحكام آيلة للزوال في الدول المتطورة، فإنها لا زالت موجودة عندنا.

وبصفة عامة، فإننا نادرا ما نوكل أمر الآلات والميكانيك للمرأة، على الرغم من أن المرأة مؤهلة لذلك، فيزيقيا وفكريا. ذلك أن الميكانيكا التي تعد امتدادا لقوتنا يجب أن تظل تحت سيطرة الرجل، مثلها في ذلك مثل الخيل والأسلحة. فكل ما يمكن أن " يقاد" و" يوجه" و" يساق" يجب أن يظل تحت سلطة الرجل. وبارتباط مع ذلك، عادة ما تؤنث الميكانيك. ومن هنا تأتي الإيحاءات الأنوثية التي تمنح لـــ " القاطرة" و"السيارة" و"الباخرة" الخ. إن التأنيث يسند لعدد هائل من الآلات : آلة الحصاد وآلة التنقية وآلة التجفيف.

أما بالنسبة للانجليزية حيث كل شيء محايد، فإنها أنثت أسماء الباخرة، وتقول بشكل عادي she الضمير الدال على المؤنث] عندما تتحدث عن القاطرة والسيارة، خاصة عندما ينطقها سائق. وللغة السوقية الفرنسية نفس الموقف من كل السيارات فهي جميعها مؤنثة bagnole , chignote, chiotte, :

guimbarde , tinette , tire الخ وهي لا تقوم إلا بإعادة إنتاج استعمال قديم، فأغلبية الأسماء التي تدل على السيارات هي أسماء مؤنثة في اللغة الفرنسية : سيارة، عربة، عربة منجم، صندوق، خفارة الخ.

لقد ولد الرجل "سائقا" و" مديرا"، ونحن نعرف الصعوبات التي نصادفها عندما نحاول تأنيث بعض العناوين، وبعض المهن المذكرة في أصلها. وكم سيكون الأمر سخيفا أن تستجوب امرأة وزيرة، فأنت لا تعرف هل ستقول لها السيدة الوزيرة أم السيد الوزيرة. أما السيدة الوزير، في انتظار السيد الوزير، فإنها دالة وقدحية للأنوثة. أما السيدة la ministresse فإنها تبدو طبيعية ومتطابقة مع بنية اللغة. أما الأمريكيون فقد اختاروا chairperson لتعويض كلمتي chairman و chairwoman لأن الأولى غير دالة على جنس بعينه. ويصدق الأمر أيضا على المرأة الطبيبة والجندية والقاضية الخ. ولكننا إذا كنا لا نقول soldate وlieutnante، وهي أشكال بسيطة وطبيعية، فلأننا نترفع عن الحط من الجوهر الفحولي للجندية. هذا مع العلم أن الجيش- بكثير من المقارمة والتحفظ - انتهى إلى قبول النساء في صفوفه، ومنحهن سلطة على الرجال شريطة أن ينادوا المرأة mon lieutnant .والغريب في الأمر أن النساء قبلن بهذا التفوق الذكوري، مثلهم في ذلك مثل النسوانيات اللائي يرفضن صفة députée أو chasseuse de tete كما لو أن هذا التأنيث يحط من وضعهن المهني. فلا شيء يبرهن على مقاومة القيم الرمزية والعلامات التي تحمله من هذا الموقف.

إن الكلمات أطول عمرا من الأشياء والمؤسسات والمعارف التي تحيل عليها وتتجذر عبرها في التجارب القديمة التي تستمر في مدها بما يضمن وجودها رغما عنا.

وفي الختام يمكن ملاحظة أن " السلبية " الجنسية للمرأة التي تعد أساس السلبية النفسية التي تسند إليها، ليست كذلك إلا في الظاهر. فهناك نشاط ذكوري للجهاز التناسلي الأنثوي أثناء المضاجعة، وهذا النشاط، إذا كان أقل ظهورا، فإنه حقيقي إذا لم تكبحه الأحكام الجنسية المسبقة. إنه نشاط من طبيعة مختلفة عن نشاط الرجل : إنه من طبيعة استيعابية، في حين أن الثاني هو من طبيعة ولوجية، وذلك ما يوكده تقلص الجدار المهلبي، وحركية ماسورة الرحم.

لقد ظلت هذه الوقائع مجهولة لمدة طويلة. ذلك أن الطب التقليدي- الذي ظل في خدمة الفكر الأبوسي- اعتقد أن المني "يتجه" نحو البويضة التي تكون في انتظاره بشكل سلبي، في حين أن الأمر ليس كذلك، فحسب علم الجنس المعاصر فإن:

" التفريغ الحركي عند الرجل والمرأة على حد سواء يتجه نحو هدف محدد، وهو تسريب مني أحد الجنسين واستقباله من طرف الجنس الآخر. فالرعشة الكبرى عند الجنسين والإشباع الذي يليها تحتوي، باعتبارها عنصرا أساسيا، النشاط الحسي للدائرة الجنسية "( ) .

وهناك ثيمة كبيرة أخرى، ويتعلق الأمر بـــ " الحساسية " و"اللاعقلانية" الأنثوية. إن أساسها يوجد في الاستعارة animus/ anima التي تقابل بين العقل " النشيط" والعاطفة " السلبية ." وقد نُظر إلى ما يشكل مجرد نمط في الدلالة باعتباره واقعا. وإلى هذا يقود ذلك التصور الثقافي المكتسب للحساسية التي تقول " إن الطفل الذي يبكي ليس رجلا "، في حين أن الطفلة التي لا تبكي تصنف، ضمن نفس الشروط، بأنها لا قلب لها.

وماذا يمكن أن يقال عن " الرقة " الأنثوية المزعومة، فذاك أمر غير صحيح، فالمرأة أكثر قدرة من الرجل على مواجهة الوضعيات المادية العنيفة (العادة الشهرية، الحمل، المخاض) إنها منذورة اجتماعيا لكل الأنشطة الأكثر خسة (معالجة الأطفال والمرضى، أشغال المترل).

إلا أنها من الناحية السميولوجية، " حساسة" وهي أيضا "لاعقلانية " و"مضطربة" ضمن نسق تقوم فيه القوة الثقافية " الذكورية " التي سُلبت منها، بتقليص الحساسيات " الأنثوية " إلى عقل ونظام.

ولهذا فليس هناك من شيء يجب أن يدان كونيا ويؤسف له ويسخر منه أكثر من غياب منطق للنساء : إنهن أطفال، وحسب اللورد شيسترفيلد الذي يحيل عليه الكثيرون:

... "إن النساء، تبعا لذلك، أطفال من أحجام كبيرة. إن لهن لغوا ممتعا وكذلك الذهنية. ولكن لا يملكن تفكيرا صلبا ولا حسا سليما. ولم أعرف في حياتي امرأة تفكر أو تتصرف بشكل منطقي 24 ساعة متتابعة. إن الرجل الرزين هو الذي يكتفي بالدردشة معهن، أو اللعب معهن ودغدغة دلالهن وشطحاتهن، تماما كما يفعل مع طفل يتميز بالحيوية والفجاجة، ولكنه لا يستشيرهن، ولا يضع ثقته فيهن عندما يتعلق الأمر بالأمور الجدية، وإن كان يوهمهن بذلك وهو أكثر الأمور التي تتباهى بها النساء".

إن هذه الثيمة تتطابق مع ثيمة " السلبية " وتدعمها. فبما أن السلطة والمعرفة متكاملتان، فإن غياب منطق عند المرأة يجعلها كائنا عاجزا عن القيادة والقرار وإصدار الأوامر. ولكن لا شيء أكثر اعتباطية من التسليم بوجود اختلاف بيولوجي بين ذكاء وحساسية الجنسين. إن أصوله موجودة في نموذج رمزي من طبيعة ثقافية. فإذا كان هناك منطق " نسائي " خاص- وهو منطق موجود في الممارسة، على الأقل من الناحية الإحصائية ولاداعي لتكرار ذلك - فإن أصل هذا المنطق يوجد في التعلم واللغة.

وهذا أمر جلي أيضا في حالة المرأة " الغامضة" وبالتالي المرأة " الخطرة"، فهذا المنطق يستند إلى نموذج يربط المرأة والأم بسلسلة من النظائر : الليل، المادة، العماء، اللاتشكل، غير المتوقع، المجهول. إنها مجهولة يوم ولادتنا - الأم التي خرجنا من رحمها -، ومجهولة يوم مماتنا - الأرض التي نعود إليها، إنها مجهولة في حياتنا كلها وفي كل القضايا التي لم تجد حلا وكل الدوافع الغامضة التي شكلت لمدة طويلة مجال القلق الأسطوري، وهو ما يشكل ميدان اللاشعور حاليا.

ترتبط المرأة بمجموعة من أساطير تتحدث عن مجهول مرعب بطبيعته. ذلك أن المعرفة هي وسيلة سلطتنا التي من خلالها نتحكم، نحن الذوات، في فعلنا وفي الأشياء. فكل مجهول هو مصدر للعجز والقلق أمام تهديد خطر داهم لا سلطة لنا عليه، وهو ما ترمز إليه " الغرابة الأنثوية " بصورها المتعددة : حواء، ليليث، باندور، الأم المفترسة، الجن، سوكاب شيطانة يزعم أنها تضاجع الرجال أثناء نومهم] ، الساحرات. وفي عصرنا الراهن الأم التحليلنفسية، الزوجه المتسلطة، المرأة المغوية، وعادة ما يتم عقلنة هذه الصور على شكل إشكاليات مثل " الفرج الذي يملك أضراسا" ، أو العضو التناسلي المفترس الذي لا يشبع ويمتص قوة الرجل وكينونته.

إن صورة المرأة المدمرة والمسكونة يمكن أن تكون بقايا صور نمطية أمومية موغلة في القدم شكل تحولها إلى وجه " أبوسي" ثورة رافقها الكثير من التوتر والمنافسة والصراع. إن النموذج الأبوسي، كما نتصوره، استنادا إلى فرضية ضحلة لا تحظى سوى بقليل من التصديق، يفترض وجود صراع بين القوة الخلاقة المعترف بها للمرأة وبين القوى المادية التي استأثر بها الرجل، ومن جهة ثانية لا يتحدث هذا النموذج أبدا عن أصول الإنجاب. إن النموذج الجديد، على النقيض من ذلك، يبدو " منطقيا" و" واضحا" ومتلائما مع رغبة الرجل في تأكيد تفوقه وألوهيته. إن " اكتشاف" دوره في التوالد يمدنا بإجابة منطقية عن هذا القلق.

ومع ذلك يمكن أن نتصور، استنادا إلى ما يقدمه التحليل النفسي الذي جاء به يونغ، أن النموذج القديم وقلقه استمرا ومازالا باعتبارهما بقايا مبثوثة في الأساطير الأكثر قدما : فالسيبيل والساحرة، والمرأة المسكونة والأمهات، ليست سوى بقايا زمن كانت فيه المرأة، وهي تتحكم في العالم الآخر، الوسيط الطبيعي للألوهة والمصدرالوحيد والغريب للحياة .

*** Pierre Guiraud : Sémiologie de la sexualité, Payot, 1978, de la page 165- 185**